# منهج محمد رضا الشبيبيّ في تقرير أصول اللهجة العراقية

م. رُقية محمد أمين كاظم البغداديّ
جامعة البصرة - كليّة التربيّة للعلوم الإنسانيّة
قسم علوم القرآن والتربيّة الاسلاميّة

## مقدمة

اللهجات العربية على مرّ العصور مادة خصبة للبحث اللغوي والاجتماعي،فمن الناحية اللغوية تعبّر اللهجة عن صورة حيّة للغة في طورها المتحرك والمتجدد، بعكس الفصحى التي تمثّل الصورة المعيارية الثابتة غالبًا. فاللهجات تسجّل ما يطرأ على اللغة من تحوّلات صوتية وصرفية ودلالية، نتيجة احتكاك المجتمعات ببعضها، وتفاعلها مع المؤثرات الثقافية الوافدة، أو تطورها الداخلي استجابة لحاجات التعبير الجديدة.

ومن الناحية الاجتماعية، فإن اللهجات ليست مجرد بنى لغوية، بل هي مرآة للمجتمع نفسه. إنها تعبّر عن طبقاته، مراكزه وهامشه، حضره وباديته، كما تسجّل تصورات الناس وعلاقاتهم وسلوكهم اليومي. ولهذا السبب تُعدّ دراسة اللهجات مدخلًا أساسًا لفهم البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع[١]

أما من الناحية التاريخية-الحضارية، فإن اللهجات تحتفظ في بنيتها بعناصر لغوية قديمة قد تكون اندثرت من الفصحى أو تغيّرت وظيفتها. كما يظهر فيها تأثير الاحتلال والغزو، والأنظمة السياسية التي فرضت نفسها على أنساق الحياة العامة، فخلقت مصطلحات ومفردات جديدة، دخلت إلى اللهجة الشعبية واستقرّت فيها[٢]

ولعل أهمية اللهجات في الدراسات اللغوية والاجتماعية تنبع من كونها أكثر شفافية في الكشف عن التحول اللغوي، فهي بطبيعتها غير مقنّنة، وتخضع لتأثير الحياة اليومية. وبهذا المعنى، تُشكّل اللهجات العربية خزانًا هائلًا من المعطيات التي تمكّن الباحث من استكشاف ديناميكية اللغة، أي قابليتها للتغيّر والاستجابة للبيئة.

وفي ضوء هذا الإطار، تبرز جهود العلامة محمد رضا الشبيبي (١٨٨٩-١٩٦٥) بوصفها أبرز المحاولات في تأصيل مفردات اللهجة العراقية وربطها بمواطنها التاريخية، سواء في الفصحى أو في اللغات المجاورة التي أثّرت في لسان أهل العراق، لا سيما الفارسية، التركية، والمغولية.

تمثل منهج الشبيبي في الجمع

بين التوثيق التاريخي، والتحقيق النصي، والتفسير السياقي، مما منح مقاربته اللغوية بعدًا لا يقتصر على التأصيل اللفظي، بل يمتد ليشمل المسار الاجتماعي والحضاري للمفردة اللغويّة. ويمكن القول: إن الشبيبي تجاوز في دراسته النزعة المعجمية التقليدية، ليؤسس لما يُشبه "علم لهجات تاريخي" يستند إلى مصادر ووقائع موثقة، يتعامل مع العامية بوصفها انحرافًا عن الفصحى، بل استمرار لتقاليد لغوية راسخة في المجتمع العراقيّ، خضعت للتحوّل والتطور في ضوء العوامل السياسية والاجتماعية.

وقد اتّسم منهجه بعدد من الخصائص اللافتة، أبرزها النزعة التأصيلية، إذ يرجّح الأصل العربي للمفردة ما لم يرد نصٌ قاطع يُثبت دخيلها؛ وكذلك اعتماده على مصادر متنوعة تشمل كتب التاريخ، الرحلات، الجغرافيا، والسير الذاتية، مثل الحوادث الجامعة، الذهبي، ابن الأثير، المقريزي، ورحلة ابن بطوطة. فضلاً عن تحقيقه في التحوّلات الدلالية للمفردة، وتتبعها بين النص الفصيح والاستعمال العامي، وبين اللغة الرسمية والوظائف الاجتماعية للكلمة.

وانطلاقًا من هذا المنهج، تسعى هذه القراءة إلى تحليل أبرز معالم القراءة اللغوية التي قدمها الشبيبي، وبيان أسسه في تفسير أصول مفردات اللهجة العراقية، من خلال تتبع الأمثلة التي اعتمد فيها على الوثائق التاريخية، والنصوص الإدارية، والسياقات الاجتماعية، لإثبات أصالة المفردة أو كشف مسارها الدلالي والزمني. وتكمن أهمية هذا التحليل في كشف العلاقة بين اللغة والتاريخ والسلطة، والوقوف على الملامح المتميزة لمنهج الشبيبي، بوصفه نموذجًا مبكرًا للدرس اللساني التاريخي في العراق الحديث.

المبحث الأول: دراسة اللهجات عند الشبيبي:

ذكر الشبيبي في مقدمة كتابه موقفه من دراسة اللهجات أوقد أشار الى ثلاثة اتجاهات في دراسة اللهجات،

الاتجاه الأول:

الاتجاه الأوربي الذي دعا

الى دراسة اللهجات مثل اللغات الرسمية، وهو موقف نشأ في سياق تطوّر الدراسات اللسانية في أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، خصوصًا مع ظهور المدرسة التاريخية المقارنة، وقيام فروع معرفية جديدة مثل علم الأصوات التاريخي، وعلم اللهجات (Dialectology). وهذا الاتجاه يرى أنَّ اللهجات ليست فروعًا ناقصة من اللغة الأم أو صورًا منحرفة عنها، بل هي كيانات لغوية حيّة ذات نسق خاص ووظائف مستقلّة. وهذا ما أشار إليه الشبيبي بقوله: " ظهرت العناية بدراسة اللهجات في العصور الحديثة، وكان للمعنيين بهذا الموضوع من علماء الفرنجة نظرتهم العامة إلى اللهجات؛ إذ يرون أن لهذه اللهجات، على اختلافها وتشعبها، حياتها واستقلالها" ويرى أن الأوربيين منحوا منزلة خاصة للهجات حتى أنهم أسسوا علما خاصاً "سمي (علم اللهجات)، وموضوعه: وصف اللهجات وتعريفها، وصلتها بأمها التي انشقت عنها"[٣]، وهذا يعني أن الاتجاه الأوروبي يمنح اللهجة صفة الكينونة الذاتية، أي أنها ليست مجرد نسخة مشوهة من الفصحى، بل كيان لغوي مستقل يحمل سماته البنيوية، ويتطوّرعلى وفق معايير استعمالية واجتماعية مثلما تتطور اللغة المعيارية.

وأصحاب هذا الاتجاه يعتقدون أنَّ "في درس أحطّ اللهجات فائدة لا تقلّ عن درس أرقاها، إلى غير ذلك. ويزعمون أيضاً أن اللهجات المحكية أو العامية، تتميز، بكونها لهجات طبيعية بعيدة عن التكلف والتصنع، خالية من التقعّر والتحذلق، مجرّدة عن الصناعة اللفظية، إلى غير ذلك مما يلاحظ وجوده في اللغات الأدبية، لغات التأليف والكتابة؛ لذلك نرى هؤلاء الباحثين من علماء الفرنجة ومقلديهم في الشرق، يدعون إلى المحافظة على اللهجات العامية، ويعنون بالبحث في لهجات أهل البادية البعيدة عن العمران، بل نراهم يتوجهون لما عسى أن يطرأ عليها من عوامل الانقراض والاضمحلال "[٤].

الاتجاه الثاني: ويرى الشبيبي أن هذا الموقف يتمثل بمعارضة التوجه الأوربي في دراسة اللهجات ومنحها قيمة

علمية تنافس دراسة اللغات الرسمية، وهذا الاتجاه يدعو الى المحافظة على اللغة الام العربية الفصحى،ويدعو الى الابتعاد عن اللهجات ودراستها، قال الشبيبي: " وقد وجد بين اللغويين قوم متطوعون جامدون، جهلوا كل الجهل أن اللغة كائن حي، لا غنى لها عن النمو والتجديد. وإلى آراء هؤلاء اللغويين المتطوعين مردّ وذم من وصم العربية، وادعى أن إتقانها فوق المقدور. وإلى جانب هؤلاء المتطوعين الجامدين يوجد فريق من المقلدين المتهافتين على كل جديد، والمتجاهلين على كل قديم في هذه الناحية"[٥]، يرى الشبيبي أن هذا الاتجاه ينطلق من نظرة جامدة إلى اللغة، تتعامل معها بوصفها نظامًا منغلقًا وثابتًا، يجب حمايته من أي مؤثر خارجي، بما في ذلك اللهجات العامية. وكان هذا التيار يدعو إلى:

- تجنّب التعامل مع اللهجات المحكية بوصفها مادة للبحث العلمي.
- الاكتفاء بدراسة الفصحى وتقديسها، مع إهمال التطور اللغوي الحاصل في المجتمع.
- رفض عمليات التجديد والتعريب والتوسع الاشتقاقي بحجة الحفاظ على نقاء اللغة.

ومن هنا، ينتقد الشبيبي هذه الرؤية بشدة، ويصف أصحابها بأنهم "قوم متطوعون جامدون"، أي أنهم يتطوّعون للذود عن الفصحى، ولكن بمنهج يغلب عليه الجمود والانغلاق، دون إدراك لطبيعة اللغة بوصفها كائنًا حيًا يخضع للتطوّر والتفاعل مع البيئات الاجتماعية والسياسية[٦] .

ويشير إلى أن هذا التيار شكّل بيئة خصبة لظهور الذمّ والاتهام للعربية بأنها لغة عصيّة على الفهم أو التعلم، من خلال التعامل المتحجّر مع قواعدها. وقد قابل هؤلاء المحافظين فريقٌ آخر من "المقلدين"، الذين اندفعوا إلى تقليد الغرب دون وعي أو مراعاة للخصوصية العربية، مما جعل الشبيبي يرفض كلا الطرفين: الجامد المتشبث بالماضي، والمندفع المتجاهل له.

إذن، يمكن تلخيص موقف الشبيبي بأنه يرفض ما أسماه بـ"الجمود اللغوي المناهض للتجديد"، ويدعو إلى

موقف معتدل يمكّن الباحث من الإفادة من اللهجات، دون أن يُفرّط في مكانة الفصحى أو يتهور في اعتماد العامية بديلًا عنها.

الموقف الثالث: موقف الاعتدال والوسطية الذي أخذ به الشبيبي في محاولة استثمار دراسة اللهجات لتحصيل بعض الفوائد التي يمكن أن تترتب على دراسة اللهجات إذ قال: " ومنهجنا في هذا الباب وسط بين المنزلتين، ومنهجه في الكتاب يقوم على أمرين:

الأمر الأول: ضرورة المحافظة على تراثنا اللغوي من خلال الالتزام بقواعد العربية ومراعاة أحكامها في تأليف الجملة وأساليب التعبير.وفنون القول"(٧)

الأمر الثاني:لزوم العناية بتنمية اللغة، وتجديدها، وتكثير موادها بطريق الاشتقاق والتعريب، وزحزحتها عن خطة الجمود وعدم مراعاة التطور الاجتماعي ودخول مفاهيم وأفكار جديدة تقتضي مصطلحات جديدة(٨)، "ليجد المتعلمون والدارسون والباحثون في العربية ما يجدونه في غيرها من اليسر والمرونة الضرورية للتعبير عن أدق الخواطر والآراء. ولذلك يجب، فيما نرى، التوفيق بين الأمرين، فلا نحول- بحجة المحافظة على تراثنا اللغوي- دون التجديد "(٩)

تمثّل الرؤية الوسطية التي تبنّاها محمد رضا الشبيبي موقفًا متزنًا يجمع بين الوفاء للتراث والانفتاح على التجديد، ويعبّر عن وعيٍ لغويّ يُدرك أن اللغة كائن اجتماعيّ حيّ، لا سبيل إلى منعه من التغيّر والتجدّد. وقد صاغ الشبيبي هذا الموقف في عبارته: "منهجنا في هذا الباب وسط بين المنزلتين"، مشيرًا بذلك إلى سعيه للتوفيق بين اتجاهين متقابلين؛ أحدهما محافظ يُغلّب المحافظة على الفصحى، والآخر مفرط في الانسياق خلف اللهجات.

ويقوم هذا التوازن في منظور الشبيبي على ركنين رئيسين: أولهما الحرص على صيانة البنية النحوية والبيانية للغة العربية، من خلال الالتزام بقواعدها وأساليبها التعبيرية، حمايةً للهوية الثقافية واللسانية. أما الركن الثاني، فيتمثّل في ضرورة تطوير اللغة

وتنمية مواردها التعبيرية، بوساطة التعريب والاشتقاق، واستيعاب مفاهيم العصر، بما يوفّر للمتحدث والكاتب أدوات لغوية كافية للتعبير عن أدق المعاني والخبرات الحديثة.

ولا يرى الشبيبي في هذا التجديد انتقاصًا من التراث، بل يؤكد أن الجمود هو العائق الحقيقي الذي يعيق اللغة عن أداء دورها الحضاري، ويمنعها من مواكبة التطور العلمي والمعرفي. وبذلك، يُقدّم الشبيبي نموذجًا لما يمكن وصفه بـ"الاجتهاد اللغوي المؤسّس"، الذي يراعي حاجة الأمة إلى الأصالة دون أن تقيّدها بالجمود، ويفتح لها أفق الإبداع دون التفريط في الجذر.

المبحث الثاني: مصادر اللهجة العراقية

يرى الشبيبي أنَّ اللهجة العراقية تولدت من عدة لغات بفعل التغيرات السياسية إذ يقول: " استولى المغول على العراق في أوائل النصف الثاني من المئة السابعة، ودخلوا بغداد، فانقرضت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ. وظهرت الدولة الإيلخانية التي حكمت، فيما حكمت، فارس والعراق ثمانين سنة، أو نحو ذلك. وفي عصر الانقلاب المغولي هذا تغيرت أشياء كثيرة: تغيرت العادات والرسوم، والآداب، واللغات، وكان نصيب لغة العراقيين من التغير والتأثر في الانقلاب المذكور نصيباً موفوراً، فقد تسرب إليها كثير من المفردات والمركبات والمواد والأساليب الإنشائية الفارسية والتركية والمغولية، بالإضافة إلى ما كان قد تسرب إليها من قبل ذلك من اللغات الهندية والأرامية والسريانية وغيرها من اللغات. ولنا أن نقول استناداً إلى الأساليب التي يتبعها بعض مؤرخي العصر المذكور وأدبائه وغيرهم في التأليف: إن لهجة جديدة أو غريبة ولدت في العراق، وهي اللهجة الشائعة الآن على ألسنة العراقيين، أو شبيهة بها. وقد نقرأ صفحة أو صفحتين من بعض الكتب التي وضعت في عصر المغول، فيخيل إلينا أنها كتبت باللهجة الشائعة في عصرنا هذا، والأمثلة على ذلك كثيرة في تلك المصنفات. ومن ذلك يستفاد أن لهجتنا الشائعة اليوم، أو لهجة جمهور العراقيين المحكية الآن، كانت دائرة على ألسنة أسلافهم القدماء نحواً من سبعمائة

سنة، خلافاً لما يظنه كثير من الناس الذين يتوهمون أن هذه اللهجة اللغوية الشائعة الآن في العراق ليست لهجة قديمة"[١٠]

فالشبيبي يؤكد أنَّ الغزو المغولي أثّر في إحداث تغييرات سياسية واجتماعية عميقة. تجلت في انحسار الفصحى ودخول مفردات فارسية، وتركية، ومغولية إلى اللغة التي يستعملها المجتمع العراقي، وأنّ اللهجة العراقية نشأت منذ نحو سبعمائة سنة، إذ إنَّ بعض الكتب المكتوبة في عصر المغول تشابه إلى حد كبير اللغة العامية العراقية اليوم، وأنها متأثرة باللغات الأخرى إذ استبدلت بعض القواعد والمفردات الفصيحة، فهي وليدة تاريخ طويل من الاندماج اللغوي والثقافي أدى الى تحول جذري في اللغة.

و يرى الشيخ الشبيبي أنَّ نشأة اللهجة العراقية الحديثة ليست انقطاعًا عن الفصحى، أو ظاهرة مستحدثة مرتبطة بالعصر الحديث، بل هي حصيلة تراكم لغوي طويل استمر قرونًا، تأثر خلاله اللسان العراقي بجملة من الأحداث والتحوّلات السياسية.

ويُرجع الشبيبي البدايات الحاسمة لتبلور هذه اللهجة إلى مرحلة الانقلاب المغولي، عقب سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ، وما أعقبه من قيام الدولة الإيلخانية. فقد مثّلت هذه الحقبة نقطة انعطاف حادة في التركيبة اللغوية للمجتمع العراقي، إذ تغيّرت أنماط الحياة والعادات، وتسرّبت إلى اللغة مفردات وأساليب تركيبية من الفارسية، التركية، والمغولية، فضلًا عن تأثيرات أقدم تعود إلى اللغات السريانية، الآرامية، والهندية.

ويذهب الشبيبي إلى القول: إنَّ ما يُعرف اليوم باللهجة العراقية ما هو إلا استمرار حيوي للهجة وُجدت منذ سبعة قرون، مستدلًا بذلك على أساليب التأليف لدى مؤرّخي العصر المغولي، التي يرى أنها تُحاكي من حيث البنية والتراكيب بعض مظاهر اللهجة المعاصرة. فقراءة بعض المصنفات المؤلَّفة في تلك المدة توحي، كما يقول، بأنها "كُتبت باللهجة الشائعة في عصرنا هذا".

ومن ثم، يُؤسس الشبيبي لموقف علمي يُقرّ بأصالة اللهجة العراقية وامتدادها التاريخي، دافعًا بذلك ما يظنه البعض

من أنها لهجة طارئة أو دخيلة. فالتحليل الذي يقدمه يقوم على أساس لغوي-تاريخي يُبرز أن العامية العراقية هي انعكاس طبيعي لسيرورة لغوية معقّدة ارتبطت بالتحولات الحضارية الكبرى في تاريخ العراق.

وقد اعتمد الشبيبي في تحليل نشأة اللهجة العراقية على منهج تاريخي-نصي يقوم على المقارنة بين المفردات والتراكيب المستخدمة في العصر المغولي، وما ورد في المؤلّفات الرسمية والإدارية لذلك العصر، وبين ما هو شائع في اللسان الشعبي العراقي المعاصر. ولم يقتصر على الانطباع اللغوي، بل استند إلى شواهد دقيقة من كتب مثل الحوادث الجامعة والكامل لابن الأثير وتاريخ الإسلام للذهبي، مما منح تحليله مصداقية علمية رصينة. ولم يقرأ النصوص من جهة المعجم فقط، بل من زاوية البنية النحوية والدلالية والأسلوبية، فوجد أن الاستعمالات اليومية الراهنة تحمل ملامح تطورية مستمرة تعود إلى تلك الحقبة التي شهدت تداخلًا لغويًا كثيفًا فرضته البنية السياسية والاجتماعية الجديدة.

إن هذا التوظيف للتأريخ النصي واللغوي يدلّ على وعي مبكر بأهمية ربط اللهجات بالسياق التاريخي، ويكشف عن منهجية ذات طابع تأصيلي تتجاوز الوصف السطحي إلى تحليل عميق في بنية التحوّل اللغوي.

ومن ثم يذكر بداية ولادة اللهجة العراقية المعاصرة مع دخول المغول، إذ يقول: " "لقد استدرجني البحث في تاريخ العراق على عهد المغول، ودراسة شؤونه، إلى النظر في أصول اللهجة العراقية المعروفة الآن، وصلتها بلهجة أبناء المئتين السابعة والثامنة من العراقيين، فظفرت بمجموعة من المواد اللغوية مفردة ومركبة، ونبذة من الأساليب التي كانت شائعة في عصر المغول، وقارنت بينها وبين أمثالها من المفردات والمركبات الشائعة على ألسنتنا اليوم، فخرجت من ذلك بأن لهجتنا الحاضرة لا تختلف كثيراً عن لهجة العراقيين القدماء في عصر مؤلف كتاب (الحوادث الجامعة)، وعصر مؤرخ العراق ابن الفوطي وأمثالهما من

مؤرخي عصر المغول، كما ترى ذلك في هذه الدراسة. "[١١]

فالشبيبي يرى أن اللهجة العراقية المعاصرة لها جذور واضحة في القرنين السابع والثامن الهجريين، ويعتمد في إثبات ذلك على المؤرخين مثل ابن الفوطي من خلال موازنة بين المفردات المستخدمة في عصر المغول وبين ما هو شائع في لهجتنا ويؤكد أن اللهجة العراقية لم تظهر فجأة، بل كانت موجودة منذ قرون، متأثرة بالمفردات المغولية والفارسية والتركية.

المبحث الثالث:أقسام اللهجة العراقية

يقسم الشبيبي اللهجة العراقية على عدة أقسام هي:

القسم الأول الالفاظ الدخيلة:

إنّ قسما من الفاظ اللهجة العراقية هي" ألفاظ دخيلة من اللهجات الفارسية والمغولية والتركية، التي عُرفت في العراق بعد استيلاء المغول على البلاد. وربما كانت بعض هذه الكلمات الدخيلة في العامية العراقية المولّدة مما لم نعرفه بين الألفاظ الدخيلة أو المولّدة المعروفة"[١٢]

ويذكر محمد رضا الشبيبي في هذا النص إحدى السمات المنهجية المهمة في دراسته للهجة العراقية، وهي تصنيف المفردات إلى أقسام بحسب أصولها وخصائصها اللغوية، ومن ذلك ما يصفه بـ "الألفاظ الدخيلة"، وهو القسم الأول في تقسيمه.

ويُقصد بالألفاظ الدخيلة تلك المفردات التي ليست من صميم الفصحى العربية، بل دخلت إلى اللسان الشعبي العراقي نتيجة عوامل خارجية، وفي طليعتها: الاحتلالات، التبادلات الحضارية، والنظم الإدارية الوافدة. وقد حدّد الشبيبي أن القسم الأكبر من هذه الألفاظ جاء إلى العراق في أعقاب الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ، ثم استمر دخولها وتثبيتها خلال الحكم الإيلخاني والعثماني.

ويشير إلى أنَّ الألفاظ الدخيلة تعود غالبًا إلى الفارسية، التركية، والمغولية، مما يعكس أثر الأنظمة الحاكمة في رسم المعجم اليومي للمجتمع. لكن الشبيبي يُضيف بُعدًا تحليليًا آخر إذ يقول: "وربما كانت بعض هذه الكلمات الدخيلة في العامية العراقية المولّدة مما لم

نعرفه بين الألفاظ الدخيلة أو المولّدة المعروفة". فهذه العبارة تعني أن هناك مفردات عامية ذات طابع غريب أو غير موثق بوضوح في المعجمات أو المصادر التقليدية، قد تكون:

- إما دخيلة لكنها لم تُسجَّل بوصفها كذلك في كتب اللغة.
- أو أنها مفردات عربية مولّدة في السياق المحلي، وتبدو دخيلة لغياب توثيقها

وهنا يبرز حذر الشبيبي المنهجي؛ فهو لا يجزم بالمفردة الدخيلة إلا إن كان الدليل واضحًا، ويُدرك أن بعض الألفاظ الدخيلة قد تكون "مُتوهَّمة"، بسبب ضعف التوثيق أو التشابه الصوتي. لذلك يحرص على تحليلها ضمن سياق استعمالها التاريخي والاجتماعي، لا الاكتفاء بالحكم السطحي على بنيتها.

وباختصار، يُجسّد هذا القسم من تصنيف الشبيبي وعيًا لغويًا تاريخيًا، ويدعو إلى التأنّي والتمحيص في تصنيف المفردات بين الدخيل والمولّد، بعيدًا عن الأحكام الحدسية أو المعالجات المعجمية التقليدية.

القسم الثاني: الالفاظ المولدة

وتتمثل في ألفاظ عربية مولدة، استعملت في موارد لم يرد عن العرب، استعمالهم لها فيها؛ إذ إن الضرورة دعت إلى استعمال كثير من المواد أو الألفاظ الجديدة بين أفعال وأسماء، إلى صيغ ومشتقات أخرى."[١٣]

ويشير محمد رضا الشبيبي إلى فئة من مفردات اللهجة العراقية يصفها بـ**"الألفاظ العربية المولّدة"**، وهي في منهجه تلك الكلمات التي تعود إلى جذور عربية فصيحة، لكن تمّ توظيفها في دلالات أو صيغ لم ترد عن العرب القدامى في هذا السياق. فهي ليست دخيلة من لغات أجنبية، بل هي نتاج تطوّر داخلي في البنية المعجمية للغة، فرضته الحاجة إلى التعبير عن مستجدات اجتماعية وثقافية وإدارية لم تعرفها اللغة القديمة من قبل.

ويُلفت الشبيبي إلى أن هذه الألفاظ جاءت نتيجة "الضرورة"، أي أنها نشأت استجابة لحاجات واقعية ومجتمعية، فكان لابد من توسيع الدلالة، أو توليد صيغ جديدة من جذور فصيحة

لأداء وظائف لم تكن معروفة أو مألوفة في الاستعمال العربي القديم. ويُضرب على ذلك أمثلة متعددة من قبيل: "بطّل" (بمعنى تعطّل)، و*"مشروح"، و"عرض حال"*، وغيرها من المفردات التي تُعد اليوم مألوفة في الاستخدام العراقي، رغم أنها غير واردة بهذه الصيغ في المعاجم التراثية الكبرى.

وفي هذا السياق، لا يُعامل الشبيبي هذه الألفاظ بوصفها انحرافًا عن الفصحى، بل يرى فيها امتدادًا حيًا لآلية اشتقاقية عربية أصيلة، لكنها وجدت في اللهجة ميدانًا للتطوّر الوظيفي والتداول الاجتماعي. ومن ثم، فإن تصنيفه لهذا القسم لا يستهدف الإقصاء اللغوي، بل التأصيل والتحليل، بوصف هذه المفردات تمثّل جزءًا عضويًا من تطوّر اللغة العربية في محيطها العراقي.

كما أن إيراد الشبيبي لهذه الفئة من المفردات يُعبّر عن منهجه التأصيلي المتوازن، القائم على التمييز بين الدخيل والمولّد، لا بناءً على التصورات المسبقة، بل من خلال التحليل اللغوي التاريخي، واستنطاق النصوص التراثية لاستخلاص الأصول المحتملة للمفردة. فهو يُعيد الاعتبار للكثير من المفردات المحكية التي طالما اتُّهمت بأنها عامية أو دخيلة، مؤكدًا أنها وليدة بيئة لغوية عربية طوّرت أدواتها التعبيرية بما يُلائم حاجاتها التاريخية.

المبحث الرابع: التوثيق التاريخي لاستخدام الكلمة:

يشير الشبيبي في بداية حديثة عن ألفاظ اللهجة العراقية إلى زمن استعمالها ووقت ظهورها، ومن ثم يُبرِز جانبًا من منهجه الذي يتمثل في التأريخ الدقيق لاستعمال المفردات داخل اللهجة العراقية، بأسلوب لا يكتفي بالوصف اللغوي بل يعتمد على رصد تاريخ الاستعمال، ووقت دخول المفردة حيز التداول وهو منحى يتجاوز المقاربة المعجمية الوصفية التقليدية التي تقتصر على تتبع أصل الكلمة أو معناها، ليركّز على تأريخ الظهور الفعلي للمفردة في النصوص والمصادر، وتحديد اللحظة التي دخلت فيها المفردة حيّز الاستعمال العام.

ويُعد هذا التوجّه من أبرز ما

يميز قراءة الشبيبي، إذ إنه لا يتعامل مع المفردة بوصفها كيانًا لغويًا معزولًا، بل يربطها بسياقها التاريخي والاجتماعي، فيسعى إلى رصد أولى الشهادات النصيّة التي تؤكد استخدامها، وتحديد ما إذا كان هذا الاستخدام قد جاء نتيجة تحوّل داخلي في العربية أو بفعل التأثر الخارجي من لغات وحضارات أخرى.

ومن الأمثلة التي أوردها الشبيبي وطبّق فيها هذا النهج:

لفظ (الإدارة والمدير):

قال الشبيبي:" أدار الشيء؛ أمَاله، وفاعله المدير. هذا هو معنى الكلمة في لغة العرب. ومنذ عصر المغول تحول مدلول هذه الكلمة، فأطلقت على تصريف الأعمال وتدبيرها، وأطلقت كلمة المدير على المصرّف، وشاع استعمالها بهذا المعنى في عصور الأتراك والعصور الحديثة. قال ابن الفوطي في ترجمة أحد الملقبين بفخر الدين: "كان عارفًا بأمور القضاء والعدالة ورسوم الإدارة والوكالة".[١٤]

فهو لا يكتفي بمجرد وصف كلمة الادارة، بل يحدد زمن استعمالها بدقة، وأنها مرت بتحوّل دلالي من أصلها العربي إلى اصطلاح ديواني سواء في عصر المغول أو العثمانيين، و منهجه هذا يقترب مما يمكن تسميته بـ"علم لهجات تاريخي".

ثانيا: لفظ (بطّل):

قال الشبيبي: " بَطَلَ الأجير (بالتخفيف) تَعَطَّلَ، ولا يُشَدَّد إلا في لهجة عراقية ظهرت في عصر المغول.

جاء في (الحوادث الجامعة) وَبَطَّلَ الناس من معايشهم وأشغالهم بسبب ذلك [١٥]، أي تعطلوا"[١٦]

يمثّل تحليل الشبيبي للفعل "بَطَّل" مثالًا بارزًا على منهجه في التأريخ الزمني لاستخدام المفردات داخل اللهجة العراقية. فمن خلال هذا المثال، لا يكتفي بردّ الكلمة إلى أصلها الفصيح، بل يتعقّب لحظة تحوّلها الصوتي والدلالي، ويُثبت سياق استخدامها من خلال شاهد نصي مؤرَّخ.

يشير الشبيبي إلى أن صيغة "بَطَل" (بالتخفيف) تُستعمل في العربية الفصحى بمعنى "تعطّل"، كما في قولهم: "بَطَل الأجير عن عمله". قال ابن

منظور:" بَطَل الأَجيرُ، بِالْفَتْحِ، يَبْطُل بَطالة وبِطالة أَي تَعَطَّل فهو بَطَّال.»[١٧]".

أما الصيغة المشددة "بَطَّل"، وهي الشائعة اليوم في اللسان العراقي، فلم ترد في الموروث الفصيح بهذا الشكل، بل يرى أنها صيغة لهجية ظهرت خلال الحقبة المغولية نتيجة التغيرات السياسية والاجتماعية التي شهدها العراق آنذاك. ويعتمد الشبيبي في إثبات هذا الظهور على نص صريح في كتاب الحوادث الجامعة، يقول فيه المؤلف: "وبَطَّل الناس من معايشهم وأشغالهم بسبب ذلك"، أي: تعطّلوا. يُبرز هذا التوثيق أن استعمال "بَطَّل" لم يكن محصورًا في الشفاهية المحكية فقط، بل تم توثيقه كتابيًّا منذ القرن السابع الهجري، مما يدل على تأصّل هذه الصيغة ضمن البنية اللهجية العراقية منذ وقت مبكر.

ثالثا: لفظ (الكشك أو الكوشك)[١٨]:

قال الشبيبي: " تركية الأصل، كانت معروفة إلى عصر قريب في اللهجة العراقية بمعنى (منظرة)، أو منزل صغير، أو هو بيت يبنى على شكل خاص، عرفته العرب قديماً بقولها (جوسق). وشاعت كلمة الجوسق المعربة في عصور ازدهار اللغة العربية، ولم تعرف كلمة الكشك إلا في عصور العباسيين الأخيرة، وبعد ذلك في عصور المغول والأتراك، وذكرت في كتب التاريخ المصنفة في تلك العصور. ففي أخبار سنة ٦٣٥ من (كتاب الحوادث الجامعة): "فيها خرج المستنصر بالله إلى الكشك، وظهر للأمراء، وأمرهم بالمشورة". ويستفاد من هذا الخبر أن الخليفة لم يكن يظهر حتى لأمراء دولته، إلا في الأحايين. ولهذه اللفظة ذكر في سياق الأخبار المسرودة في (كتاب الحوادث الجامعة) أكثر من مرة، طوراً باسم الكشك، وتارةً باسم (كشك الملكية)، ففي أخبار سنة ٦٤٣: "فيها جرى معتوق الموصلي المعروف بكوثر الكلام من دقوق (دقوقا) ساعياً على قدميه، فوصل (كشك الملكية)، ودخله. وكان الخليفة هناك، ومعه الشرابي، وهو أستاذه؛ ثم خرج من الكشك، وعاد إلى الوقف، ثم رجع إلى الكشك وقد بقي من النهار ساعة ونصف، فقبل الأرض بين يدي الخليفة، فتقدم له بخمس مئة دينار، وأعطاه الشرابي ثلاث مئة دينار،

وحصل له من أرباب الدولة شيء كثير".

وفي أخبار سنة ٦٤٦: "سعى علي بن الاربليّ من دقوق – دقوقا – إلى بغداد، فوصل بعد العصر، وفضل على معتوق الموصلي المعروف بالكوثر نصف ساعة، ودار حول الكشك شوطاً، وخرج إلى التفرج عليه الخليفة المستعصم بالله وأولاده، وجلسوا في الكشك إلى حين وصوله. وكان هذا المذكور مختصاً بخدمة الأمير مبارك ولد الخليفة، فأمر له بفرس من مراكبه وخلعة وذهب، ودار من الغد في البلد بالطبول والبوقات، فحصل له شيء كثير". وهذا الكشك الذي كان المستعصم يخرج إليه للاحتفال بالسباق بين السعاة أو العدّائين أو للاجتماع برجال دولته كما جاء في (الحوادث الجامعة)، قديم، أي أنه أقدم من عصر المستعصم؛ فقد ورد ذكره في أخبار سنة ٥٥٧ من (تاريخ الذهبي): "فيها بني للخليفة كشك، وآخر للوزير، وأُنفِقَ عليهما مبلغ عظيم". ثم ورد ذكره في حوادث سنة ٦١٤ من (الكامل) لابن الأثير، وذلك عند كلامه على غرق بغداد في الجانب الشرقي، فقال: "فيها زادت دجلة زيادة عظيمة، لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، وأشرفت بغداد على الغرق، فركب الوزير وكافة الأمراء والأعيان، وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل (القورج) حول البلد، وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان". ويستفاد من ذلك تعيين موضع الكشك المذكور، وأنه لم يكن بعيداً عن ضواحي بغداد الشرقية القريبة من الباب المعروف بباب الحلبة[١٩]

يبدأ الشبيبي حديثه عن أصل الكلمة "كشك"، فيُبيّن أنها تركية الأصل، ويُميّز بينها وبين المقابل العربي "جوسق" الذي كان مستخدمًا سابقًا. ، ويربط زمن شيوع كلمة "كشك" بالمرحلة المتأخرة من العصر العباسي ثم بعهد المغول والأتراك، مشيرًا إلى أن الكلمة لم تكن معروفة قبل ذلك. فالشبيبي يتعقّب مسار كلمة الكشك التاريخي، وانتشارها الاجتماعي، ودلالتها الوظيفية في الحياة السياسية العباسية والمغولية. يشكّل تحليل الشبيبي لكلمة "كشك" نموذجًا

لقراءة معجمية تتجاوز الطابع التقليدي في دراسة الألفاظ، إذ ينظر إلى الكلمة من الجانب الثقافي والاجتماعي والسياسي. فهو لا يتوقف عند تتبّع أصلها التركي أو تاريخ شيوعها في العصر العباسي المتأخر وعهد المغول والعثمانيين، بل ينطلق منها ليكشف عن تداخل عميق بين اللغة والسياسية، وبين الكلمة والمجتمع الذي يتداولها.

ما يميز التوثيق التاريخي في منهج الشبيبي أنه يُظهر وعيًا دقيقًا بأن تحولات اللغة والتغييرات اللغوية ليست معزولة، بل تتأثر بالتحولات السياسية ومن ثم يربط النسق اللغوي بالنظام السياسي فمثلاً، مع استقرار سيطرة المغول والعثمانيين ظهرت مفردات كـالمدير والكشك وبطّل بمعانٍ جديدة ودلالات مستحدثة.

والشبيبي ينطلق في اعتماده على التوثيق التاريخي من نقطة مهمة جدا هي إنَّ استعمال تلك الألفاظ في المصادر التاريخية التي توثق حقبة زمنية معينة من تاريخ العراق لا يعني لفظًا تداوليًّا فقط لغرض الاخبار، بل يعكس سلطة ثقافية لغوية فرضت نفسها داخل بنية المجتمع العراقي، وهذا يعني أن الشبيبي في معجمه هذا يتجاوز حدود المعجمية التقليدية، ليقدّم سجلًا ثقافيا لألفاظ اللهجة العراقية المرتبطة بالتحولات السياسية في ذلك الوقت. وهو يقدم منهجا في دراسة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية-سياسية. فهو لا يكتفي بتحديد الأصل اللغوي للكلمة، بل يتتبع المعاني والدلالات التي اكتسبتها في سياقات تاريخية محددة، مما يجعل من عمله إسهامًا نوعيًا في توثيق اللهجة العراقية وتحليلها في ضوء التغيرات السياسية التي شهدها العراق في ذلك الوقت. فالشبيبي لا يعزل الألفاظ عن سياقاتها التاريخية، ويؤكد أن المفردات التي تظهر في النصوص التاريخية لا تمثّل مجرد عناصر لغوية حيادية، بل تعكس سلطة ثقافية تفرضها السطلة الحاكمة التي كانت تمارس نفوذها حتى في بنية اللغة المتداولة بين الناس.

## الخاتمة

تكشف هذه الدراسة عن القيمة العلمية الرائدة التي قدّمها محمد رضا

الشبيبي في مقاربة اللهجة العراقية، بوصفها ظاهرة لغوية وتاريخية تستحق التأصيل والتحليل. فقد استطاع الشبيبي أن يرسم معالم منهج تأصيلي متكامل، يجمع بين التوثيق النصّيّ الدقيق، والرؤية التاريخية التحليلية، والنظر الاجتماعي–السياسي، ما يجعل قراءته للهجة العراقية تتجاوز النظرة الوصفية السطحية نحو معالجة لسانية مركّبة، تحتفي بالتحوّل دون أن تقطع مع الأصل.

وقد بيّن البحث أن الشبيبي لم يتعامل مع لهجة العراقيين على أنها "عامية طارئة"، بل تتبّع أصولها الممتدة إلى العصر المغولي، موثّقًا ذلك بالنصوص التاريخية والكتابات الإدارية والأدبية، ومُظهرًا أن ما يُتداول اليوم على ألسنة الناس ليس إلا استمرارًا لتحوّل لغوي راكمه الزمن بفعل التداخل الحضاري والهيمنة السياسية والاحتكاك الثقافي.

وقف تصنيفه للألفاظ إلى "دخيلة" و"عربية مولّدة" ينبئ عن حسّ لغوي نقدي، وموقف متّزن لا ينزلق إلى الاتهام أو التقديس. بل إنه قدّم أُنموذجًا للدرس اللهجي المؤسس على المعاينة التاريخية والنصية، في ضوء فَهمٍ لطبيعة اللغة بوصفها كائنًا اجتماعيًا يكتسب شرعيته من الاستعمال والوظيفة.

الهوامش:

١- ينظر: في اللهجات العربية، د ابراهيم انيس: ٢٤، دراسة اللهجات العربية القديمة، د. داود سلوم: ١ -٦، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، د. أنيس فريحة:٤١-٤٤، اللهجات العربية نشأة وتطور، عبد الغفور حامد هلال: ٤١-٥١، اللهجات القديمة وبناء الجملة في العربية الفصحى، إبراهيم يوسف السيد.

٢- في اللهجات العربية،د ابراهيم انيس: ١٢ و٢١-٢٣

٣- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٧)

٤- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٧)

٥- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٧)

٦- ينظر: محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها،د. أنيس فريحة: ب

٧- ينظر: معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٩)

٨- ينظر: معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٩)

٩- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٩)

١٠- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (١٣)

١١- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (١٤)

١٢- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (١٧)

١٣- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (١٨)

١٤- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٢٧)

١٥- الحوادث الجامعة لابن الفوطي: ٤١٦

١٦- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (٣٦)

١٧- «لسان العرب» (١١/ ٥٧

١٨- «الكشك "معرب جوسق": وهو البيت الصغير»، ينظر: «معجم متن اللغة» (٥/ ٧٢):

١٩- معجم وأصول اللهجة العراقية محمد رضا الشبيبي: (١١٨)

المصادر والمراجع:


١- دراسة اللهجات العربية القديمة، د. داود سلوم، المكتبة العلمية ومطبعتها، لاهور - باكستان، ومكتبة المنار الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٢- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة،: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني المعروف بابن الفوطي (٧٢٣هـ)، تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م- ١٤٢٤هـ

٣- اللهجات العربية نشأة وتطور، عبد الغفور حامد هلال، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٤- اللهجات القديمة وبناء الجملة في العربية الفصحى، إبراهيم يوسف السيد، بحث منشور في بحوث ودراسات في اللغة العربية وآدابها، ج٣، ١٤١٣هـ.

٥- في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس،: مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٩٢م.

٦- لسان العرب،: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٧- محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، د. أنيس فريحة، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٥.

٨- معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)،: أحمد رضا (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق)، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٣٧٧ - ١٣٨٠ هـ.

٩- معجم وأصول اللهجة العراقية، محمد رضا الشبيبي، الدار العربية للموسوعات، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م- ١٤٢٧هـ.